فوائد وفرائد قرآنية

جزء الأحقاف(٢٦)

اعداد

محمد بن خالد الخضير

خطيب جامع ابن حجر بالثقبة ومشرف تربوي

Khdair90@yahoo.com

https://twitter.com/khdair90

مقدمه

الحمد لله على إحسانه، والشكر له على توفيقه وامتنانه. وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له تعظيمًا لشأنه، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله الداعي إلى رضوانه، صلّى الله عليه وعلى آله وصحبه

أَمَّا بَعْدُ:

بين يديكم فوائد قرآنية من بعض الآيات من جزء الأحقاف (السادس والعشرون) وأصلها دروس رمضانية كنت أقدمها بعد صلاة العصر في مسجد الصفا بالدمام (حي بترومين) في شهر رمضان المبارك من العام الهجري ١٤٣٨هـ، (شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدىً لِلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ)، شهرٌ تضيقُ فيه منافذُ الشياطين، فتصفُو عبادةُ المرءِ لربه، ويلَذُّ الأُنسُ بكتابه العزيز الذي لا يأتيه الباطلُ من بين يديه ولا من خلفه﴿ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴾[فصلت: ٤٢]. إنه شهر القرآن الكريم، شهرُ الانكسار والمناجاة، شهرُ التدبُّر والاعتبار والخشية؛ لأن المرءَ بلا قرآن كالحياة بلا ماءٍ ولا هواءٍ، وهو بمثابة الروح للحياة، والنور للهداية. خيرُ جليسٍ لا يُملُّ حديثُه، وتَردادُه يزدادُ به المرءُ تجمُّلاً وبهاءً.

وقد أمرنا الله سبحانه بتدبره وتفهمه: (كتاب أنزلناه إليك مبارك ليدبروا آياته وليتذكر أولوا الألباب) وقال : (أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها)، (أفلا يتدبرون القرآن ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا)

أسأل الله أن ينفع بها ويجعلها خالصة لوجهه ويجعلنا من أهل القرآن الذين هم أهل وخاصته.

محمد بن خالد الخضير

Khdair90@yahoo.com

https://twitter.com/khdair90

سورة الأحقاف

- سورة الأحقاف سورة مكية .
- سميت بذلك ، لأنه ورد فيها لفظ الأحقاف في قوله تعالى (وَاذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنْذَرَ قَوْمَهُ بِالْأَحْقَافِ) والأحقاف : هي مساكن عاد الذين أهلكهم الله بطغيانهم وجبروتهم ، وكانت مساكنهم في أرض اليمن ، ولم يرد هذا اللفظ في سور القرآن الكريم في غير هذه السورة .

أهم مواضيعها :

إعجاز القرآن وأنه منزل من عند الله، ذكر الأدلة على التوحيد والحشر

ذكر حال فريقين : فريق أهل الاستقامة الذين أقروا بتوحيد الله واستقاموا على ملته ، وأطاعوا والديهم وأحسنوا إليهم فكانوا أصحاب الجنة .

وفريق الكافرين الخارجين عن هدي الفطرة المنكرين البعث والحساب العاقين لوالديهم فكانوا أصحاب النار، ثم تحدثت السورة عن قصة هود عليه السلام مع قومه الطاغين (عاد) الذين طغوا في البلاد فأهلكهم الله بالريح العقيم ، تحذيراً لكفار قريش، وختمت السورة بتثبيت الرسول.

حم (١) تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ (٢) مَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُسَمًّى وَالَّذِينَ كَفَرُوا عَمَّا أُنْذِرُوا مُعْرِضُونَ (٣)

هذا ثناء منه تعالى على كتابه العزيز وتعظيم له، وفي ضمن ذلك إرشاد العباد إلى الاهتداء بنوره والإقبال على تدبر آياته واستخراج كنوزه.

(**حم**) هذه تسمى الحروف المقطعة ليس لها معنى في نفسها على الأرجح ، وأما الحكمة منها : أنها إشارة إلى إعجاز القرآن العظيم ، وأن الخلق عاجزون عن معارضته بمثله هذا مع أنه مركب من هذه الحروف المقطعة التي يتخاطبون بها

(**تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ**) أي : هذا الكتاب وهو القرآن منزل من عند الله .

وسمي القرآن كتاباً : لأنه مكتوب في اللوح المحفوظ كما قال تعالى (بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَجِيدٌ فِي لَوْحٍ مَحْفُوظٍ) ، وهو مكتوب في الصحف التي بأيدي الملائكة قال تعالى (فِي صُحُفٍ مُكَرَّمَةٍ مَرْفُوعَةٍ مُطَهَّرَةٍ . بِأَيْدِي سَفَرَةٍ) ، وهو مكتوب في الصحف التي بأيدينا ، فهو مكتوب بأيدينا ونقرؤه من هذه الكتب .

(**الْعَزِيزِ**) اسم من أسماء الله متضمن لصفة العزة وهي ثلاثة أنواع : عزة القدْر : بمعنى أن الله ذو قدْر شريف عظيم ، وعزة القهر : بمعنى أن الله القاهر لكل شيء ، لا يُغلب ، وعزة الامتناع : بمعنى أنه يمتنع أن يناله أحد بسوء أو نقص

(**الْحَكِيمِ**) اسم من أسماء الله متضمن لصفة الحكمة البالغة ، فأوامره وأحكامه وأفعاله كلها لحكمة .

ولما بين إنزال كتابه المتضمن للأمر والنهي ذكر خلقه السماوات والأرض فجمع بين الخلق والأمر أَلا لَهُ الْخَلْقُ وَالأَمْرُ، فالله تعالى هو الذي خلق المكلفين وخلق مساكنهم وسخر لهم ما في السماوات وما في الأرض ثم أرسل إليهم رسله وأنزل عليهم كتبه وأمرهم ونهاهم وأخبرهم أن هذه الدار دار أعمال وممر للعمال لا دار إقامة لا يرحل عنها أهلها، وأنهم سينتقلون منها إلى دار الإقامة والقرار وموطن الخلود والدوام، وإنما أعمالهم التي عملوها في هذه الدار سيجدون ثوابها في تلك الدار كاملا موفرا.

(**مَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ**) أي : وما أوجدنا السموات والأرض .

(**وَمَا بَيْنَهُمَا**) من المخلوقات الكثيرة المنوعة ، وتقدم .(إِلَّا بِالْحَقِّ) أي : وليس عبثاً ، فإن الله منزه عن العبث ، فكل شيء أوجده الله أوجده لحكمة

(**وَأَجَلٍ مُسَمّىً**) إلى مدة معينة مضروبة لا تزيد ولا تنقص ، وهذا الأجل هو يوم القيامة ، فإنه تنتهي فيه السموات والأرض وما بينهما وتبدل الأرض غير الأرض والسموات ، وفيه إشارة إلى قيام الساعة وانقضاء مدة الدنيا .

(**وَالَّذِينَ كَفَرُوا عَمَّا أُنْذِرُوا مُعْرِضُونَ**) أي : عما أنذروا وخوّفوا به في القرآن من البعث والحساب والجزاء معرضون مولون غير مستعدين له .

قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَاوَاتِ ائْتُونِي بِكِتَابٍ مِنْ قَبْلِ هَذَا أَوْ أَثَارَةٍ مِنْ عِلْمٍ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٤) وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ يَدْعُو مِنْ دُونِ اللَّهِ مَنْ لا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَنْ دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ(٥) وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ (٦)

(**قُلْ**) يا محمد لهؤلاء المشركين العابدين مه الله غيره .(**أَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ**) أخبروني عن هذه الأصنام التي تعبدونها من دون الله .

(**أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ**) أي : أرشدوني إلى المكان الذي استقلوا بخلقه من الأرض .(**أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَاوَاتِ**) أم لهم نصيب ومشاركة مع الله في خلق السموات ، الجواب : ليس لهم شيء ، وما يملكون من قطمير.

(**ائْتُونِي بِكِتَابٍ مِنْ قَبْلِ هَذَا**) هاتوا كتاباً من كتب الله المنزلة على الأنبياء عليهم الصلاة والسلام يأمركم بعبادة هذه الأصنام .

(**أَوْ أَثَارَةٍ مِنْ عِلْمٍ**) دليل بيّن على هذا المسلك الذي سلكتموه .

(**إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ**) إن كنتم صادقين في دعواكم أنهاء شركاء مع الله .

(**وَمَنْ أَضَلُّ**) لا أحد أشد ضلالة .(**مِمَّنْ يَدْعُو مِنْ دُونِ اللَّهِ**) من الأصنام وغيرها من الآلهة التي تعبد من دون الله .

(**مَنْ لا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ**) لا يقدر على إجابته بإعطائه ما طلب منه ، لأنه عاجز (**وَهُمْ عَنْ دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ**) وهي غافلة عما يقول ، لا تسمع ولا تبصر ولا تبطش ، لأنها جماد حجر

، صم ، وفيه تهكم بها وبمن عبدها ، كما قال تعالى عن إبراهيم (إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لا يَسْمَعُ وَلا يُبْصِرُ وَلا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئاً) .

(**وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ**) جمعوا للحساب والجزاء (**كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً**) كانت هذه الأصنام أعداء لعابديها يضرونهم ولا ينفعونهم .

(**وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ**) وتتبرأ الأصنام من الذين عبدوها .

هذه الآية تبين أنه لا أحد أضل ممن يدعو من دون الله ، ووصف المدعو من دون الله بأربع أوصاف :الأولى: عدم استجابتهم لهم إلى يوم القيامة، الثانية : أنهم غافلون عن دعائهم، إما لأنهم أموات، أو جماد لا إحساس لهم، أو حي مشغول ، أو ملك لا علم له بمن دعاه .الثالثة: أنهم يكونون أعداءً لمن عبدوهم يوم القيامة.

الرابعة : أنهم يبرؤون من عبادتهم وينكرونها .

وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ (٧) أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَلا تَمْلِكُونَ لِي مِنَ اللَّهِ شَيْئًا هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ كَفَى بِهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (٨) قُلْ مَا كُنْتُ بِدْعًا مِنَ الرُّسُلِ وَمَا أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلا بِكُمْ إِنْ أَتَّبِعُ إِلا مَا يُوحَى إِلَيَّ وَمَا أَنَا إِلا نَذِيرٌ مُبِينٌ (٩) قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَكَفَرْتُمْ بِهِ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى مِثْلِهِ فَآمَنَ وَاسْتَكْبَرْتُمْ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (١٠) .

أي: وإذا تتلى على المكذبين (آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ) بحيث تكون على وجه لا يمترى بها ولا يشك في وقوعها وحقها لم تفدهم خيرا بل قامت عليهم بذلك الحجة، ويقولون من إفكهم وافترائهم (لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ) أي: ظاهر لا شك فيه وهذا من باب قلب الحقائق الذي لا يروج إلا على ضعفاء

العقول، وإلا فبين الحق الذي جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم وبين السحر من المنافاة والمخالفة أعظم مما بين السماء والأرض.

(أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ) أي: افترى محمد هذا القرآن من عند نفسه فليس هو من عند الله.

(قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَلا تَمْلِكُونَ لِي مِنَ اللَّهِ شَيْئًا) لو كذبت عليه وزعمت أنه أرسلني – وليس كذلك – لعاقبني أشد العقوبة ، ولم يقدر أحد من أهل الأرض ، لا أنتم ولا غيركم أن يجيرني منه .كما قال تعالى (وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ . لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ . ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ . فَمَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ) .

ثم دعاهم إلى التوبة مع ما صدر منهم من معاندة الحق ومخاصمته فقال: (وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ) أي: فتوبوا إليه وأقلعوا عما أنتم فيه يغفر لكم ذنوبكم ويرحمكم فيوفقكم للخير ويثيبكم جزيل الأجر.

(قُلْ مَا كُنْتُ بِدْعًا مِنَ الرُّسُلِ) أي: لست بأول رسول جاءكم حتى تستغربوا رسالتي وتستنكروا دعوتي فقد تقدم من الرسل والأنبياء من وافقت دعوتي دعوتهم فلأي شيء تنكرون رسالتي؟ (وَمَا أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلا بِكُمْ) أي: لست إلا بشرا ليس بيدي من الأمر شيء والله تعالى هو المتصرف بي وبكم الحاكم علي وعليكم، ولست الآتي بالشيء من عندي، (وَمَا أَنَا إِلا نَذِيرٌ مُبِينٌ) فإن قبلتم رسالتي وأجبتم دعوتي فهو حظكم ونصيبكم في الدنيا والآخرة، وإن رددتم ذلك علي فحسابكم على الله وقد أنذرتكم ومن أنذر فقد أعذر.

(قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَكَفَرْتُمْ بِهِ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى مِثْلِهِ فَآمَنَ وَاسْتَكْبَرْتُمْ) أي: أخبروني لو كان هذا القرآن من عند الله وشهد على صحته الموفقون من أهل الكتاب الذين عندهم من الحق ما يعرفون أنه الحق فآمنوا به واهتدوا فتطابقت أنباء الأنبياء وأتباعهم النبلاء واستكبرتم أيها الجهلاء الأغبياء فهل هذا إلا أعظم الظلم وأشد الكفر؟ (إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ) ومن الظلم الاستكبار عن الحق بعد التمكن منه.

وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا لَوْ كَانَ خَيْرًا مَا سَبَقُونَا إِلَيْهِ وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ فَسَيَقُولُونَ هَذَا إِفْكٌ قَدِيمٌ (١١) وَمِنْ قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَى إِمَامًا وَرَحْمَةً وَهَذَا كِتَابٌ مُصَدِّقٌ لِسَانًا عَرَبِيًّا لِيُنْذِرَ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَبُشْرَى لِلْمُحْسِنِينَ (١٢) .

أي: قال الكفار بالحق معاندين له ورادين لدعوته: (لَوْ كَانَ خَيْرًا مَا سَبَقُونَا إِلَيْهِ) أي: ما سبقنا إليه المؤمنون أي: لكنا أول مبادر به وسابق إليه وهذا من البهرجة في مكان، فأي دليل يدل على أن علامة الحق سبق المكذبين به للمؤمنين؟ هل هم أزكى نفوسا؟ أم أكمل عقولا؟ أم الهدى بأيديهم؟ ولكن هذا الكلام الذي صدر منهم يعزون به أنفسهم بمنزلة من لم يقدر على الشيء ثم طفق يذمه ولهذا قال: (وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ فَسَيَقُولُونَ هَذَا إِفْكٌ قَدِيمٌ) أي: هذا السبب الذي دعاهم إليه أنهم لما لم يهتدوا بهذا القرآن وفاتهم أعظم المواهب وأجل الرغائب قدحوا فيه بأنه كذب وهو الحق الذي لا شك فيه ولا امتراء يعتريه.

الذي قد وافق الكتب السماوية خصوصا أكملها وأفضلها بعد القرآن وهي التوراة التي أنزلها الله على موسى (إِمَامًا وَرَحْمَةً) أي: يقتدي بها بنو إسرائيل ويهتدون بها فيحصل لهم خير الدنيا والآخرة. (وَهَذَا) القرآن (كِتَابٌ مُصَدِّقٌ) للكتب السابقة شهد بصدقها وصدَّقها بموافقته لها وجعله الله (لِسَانًا عَرَبِيًّا) ليسهل تناوله ويتيسر تذكره، (لِيُنْذِرَ الَّذِينَ ظَلَمُوا) أنفسهم بالكفر والفسوق والعصيان إن استمروا على ظلمهم بالعذاب الوبيل ويبشر المحسنين في عبادة الخالق وفي نفع المخلوقين بالثواب الجزيل في الدنيا والآخرة ويذكر الأعمال التي ينذر عنها والأعمال التي يبشر بها.

إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ (١٣) أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٤)

(إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ) سورة فصلت ٣٠،

هاتين الآيتين –تبين كل واحدة منهما عظم أمر الاستقامة، وما أعد الله عز وجل للمستقيمين على شرعه،﴿ إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا ﴾ قال ابن كثير: أي أخلصوا العمل لله، وعملوا بطاعة الله تعالى على ما شرع لهم.

قال الزهري: تلا عمر هذه الآية على المنبر، ثم قال: استقاموا والله لله بطاعته، ولم يروغوا روغان الثعالب قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: "أعظم الكرامة لزوم الاستقامة"،

والاستقامة يمكن معرفة عظمها وخطرها إذا تأملت حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم: (شيبتني هود)رواه الترمذي وهو حديث صحيح.

فظهر الشيب في رأسه من شدة ما لاقى عليه السلام من أوامر هذه السورة العظيمة، وما اشتملت عليه من الأحكام الكبيرة. ذكر بعض المفسرين أن من الأسباب التي شيبت رسول الله صلى الله عليه وسلم : فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَنْ تَابَ مَعَكَ [هود:١١٢]

روى مسلم في صحيحه من حديث سفيان بن عبدالله الثقفي رضي الله عنه قال: قلت: يا رسول الله، قل لي في الإسلام قولاً: لا أسأل عنه أحداً بعدك، قال: «قُل: آمنت بالله فاستقم»

ولا يكون العبد على طريق الاستقامة: حتى تكون إرادته وأعماله وأقواله، وفق ما شرعه الله، وعلى سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم،قال تعالى:﴿ فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَنْ تَابَ مَعَكَ ﴾ فقال: ﴿ كَمَا أُمِرْتَ ﴾ ولم يقل: كما أردت،

وَمَدَارُ الاسْتِقَامَةِ فِي الدِّينِ عَلَى أَمْرَيْنِ عَظِيمَيْنِ هُمَا: حِفْظُ القَلْبِ وَاللِّسَانِ، فَمَتَى اسْتَقَامَا اسْتَقَامَتْ سَائِرُ الأَعْضَاءِ، وصَلَحَ الإِنْسَانُ فِي سُلُوكِهِ وحَرَكَاتِهِ وسَكَنَاتِهِ، ومَتَى اعْوَجَّا وَفَسَدَا فَسَدَ الإِنْسَانُ وضَلَّتْ أَعْضَاؤُهُ جَمِيعًا، وَفِي الصَّحِيحَيْنِ أَنَّهُ قَالَ: ((أَلاَ وَإِنَّ فِي الْجَسَدِ مُضْغَةً، إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الْجَسَدُ كُلُّهُ، وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الْجَسَدُ كُلُّهُ؛ أَلاَ وَهِيَ الْقَلْبُ))، وَعِنْدَ الإِمَامِ أَحْمَدَ مِنْ حَدِيثِ أَنَسِ بنِ مَالِكٍ أَنَّ النبيَّ قَالَ: ((لاَ يَسْتَقِيمُ إِيمَانُ عَبْدٍ حَتَّى يَسْتَقِيمَ قَلْبُهُ، وَلاَ يَسْتَقِيمُ قَلْبُهُ حَتَّى يَسْتَقِيمَ لِسَانُهُ،)): ١١٢]

وسائل تحقيق الاستقامة:

١- الدعاء والتضرع، وسؤالها بجد وإخلاص، ولأهمية ذلك أمرنا بقراءة الفاتحة في كل ركعة، لما فيها من سؤال الصراط المستقيم المخالف لأصحاب الجحيم

٢- الاشتغال بالعلم الشرعي، فالعلم قائد والعمل تبع له: ﴿ فَاعْلَمْ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلا اللهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ ﴾، فأمر بالعلم قبل العمل.

٣- مراقبة الله في السر والعلن.

٤- مجاهدة النفس، والهوى، والشيطان، وعدم الغفلة عن ذلك، ومحاسبتها في كل وقت وحين، وعلى الجليل والحقير.

٥- الإكثار من تلاوة القرآن، ومحاولة حفظه أوما تيسر منه، والمداومة على ورد ثابت.

٦- الإكثار من ذكر الله عز وجل، والمداومة على أذكار الصباح والمساء،

٧- الحرص على سلامة القلب، والحذر من أمراض القلب كالحسد، والرياء

٨- الصحبة الصالحة.

من ثمرات الاستقامة

١- تتنزل على أهل الاستقامة الملائكة { إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ} فالملائكة تتنزل عليهم بالسرور و الحبور و البشرى في مواطن عصيبة، قال وكيع :" البشرى في ثلاثة مواطن: عند الموت، و في القبر، و عند البعث " قال ابن مسعود: إذا جاء ملك الموت ليقبض روح المؤمن قال له: إن ربك يقرئك السلام، ﴿ الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلَامٌ عَلَيْكُمُ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ [النحل: ٣٢]،

٢- الطمأنينة و السكينةحيث قال تعالى:{ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا } أي لا تخافوا مما تقدمون عليه من أمور الآخرة، و لا تحزنوا على ما فاتكم من أمور الدنيا،

﴿ نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ ﴾ تقول الملائكة للمؤمنين عند الاحتضار: نحن كنا أولياءكم أي قرناءكم في الحياة الدنيا نسددكم ونوفقكم ونحفظكم بأمر الله، وكذلك نكون معكم في الآخرة نؤنس منكم الوحشة في القبور وعند النفخة في الصور، ونؤمنكم يوم البعث والنشور، ونجاوز بكم الصراط المستقيم، ونوصلكم إلى جنات النعيم

٣- البشرى بالجنة{ وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ } وهذا هو الهدف الذي ينشده كل مسلم نسأل الله من واسع فضله.

﴿ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنْفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ﴾أي: في الجنة من جميع ما تختارون مما تشتهيه النفوس وتقر به العيون،

﴿ نُزُلًا مِنْ غَفُورٍ رَحِيمٍ ﴾ضيافة وعطاء وإنعاماً من غفور لذنوبكم، رؤوف حيث غفر وستر، ورحم ولطف؛ روى البخاري ومسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم

قال:«قال الله: أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر» فاقرؤوا إن شئتم: ﴿ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾

٤-سعة الرزق في الدنيا

قال تعالى: {وَأَلَّوِ اسْتَقامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لأسْقَيْناهُمْ ماءً غَدَقاً} (الجن: ١٦) أي كثيراً والمراد بذلك سعة الرزق وكما قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه:" أينما كان الماء كان المال " [انظر تفسير القرطبي على هذه الآية].

٥-الانشراح في الصدر والحياة الطيبة

قال تعالى: {مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ} (النحل: ٩٧) ومن جاء بالاستقامة فقد عمل أحسن العمل فاستحق الحياة الطيبة الهنية.

وَوَصَّيْنَا الإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلاثُونَ شَهْرًا حَتَّى إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ (١٥) أُولَئِكَ الَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَنَتَجَاوَزُ عَنْ سَيِّئَاتِهِمْ فِي أَصْحَابِ الْجَنَّةِ وَعْدَ الصِّدْقِ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ (١٦) .

إن بر الوالدين من أعظم شعائر الدين قضى به ربنا عز وجل، وثنى به، وعطفه على عبادته وتوحيده (وَقَضَى رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُواْ إِلاَّ إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا) سورة الإسراء ٢٣. كما قرن شكره بشكرهما في قوله: (أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ) سورة لقمان ١٤. وجعل أحب الأعمال إلى الله –بعد الصلاة لله عز وجل– بر الوالدين، عن عبد الله بن مسعود قال: سألت النبي صلى الله عليه وسلم: "أي العمل أحب إلى الله عز وجل؟ قال: (الصلاة على وقتها) قال: ثم أي؟ قال: (بر الوالدين)

وعن عبد الله بن عمرو بن العاص – رضي الله عنهما – قال: أقبل رجل إلى النبي r فقال: **أُبايعك على الهجرة والجهاد أبتغي الأجر من الله تعالى**، قال: «فهل لك من والديك أحد حي؟» قال: نعم، قال: «فارجع إلى والديك فأحسن صحبتهما»، متفق عليه. وفي رواية لهما: جاء رجل فاستأذنه في الجهاد فقال: «أحيٌّ والداك؟» قال: نعم، قال: «ففيهما فجاهد»

وروى مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلّى الله عليه وسلم: ((**رغم أنفه، رغم أنفه، رغم أنفه**. قيل: من يا رسول الله؟ قال: من أدرك والديه، أحدهما أو كلاهما ثمّ لم يدخل الجنة)).

رضا الوالدين سبب في رضا الله تعالى : ما أعظمها من غنيمة ! أن يفوز البار لوالديه؛ برضا الله تعالى ! وإذا رضي الله تعالى عن عبد من عباده ؛ أسعده في الدنيا والآخرة !قال رسول الله صلى الله

عليه وسلم : «رضا الله في رضا الوالد، وسخط الله في سخط الوالد» [صحيح الترغيب للألباني: ٢٥٠١] .

أقوال السلف الصالح في بر الوالدين:

١- روى البخاري (في الأدب المفرد) عن ابن عباسٍ، قال: لا أعلم عملًا أقربَ إلى الله عز وجل من برِّ الوالدة؛ (صحيح) (صحيح الأدب المفرد – للألباني

٢- كان أبو هريرة –رضي الله عنه– كلما أراد أن يدخل أو يخرج من دار أمه وقف على بابها فقال: السلام عليك –يا أمتاه– ورحمة الله وبركاته، فتقول: وعليك –يا بني– ورحمة الله وبركاته، فيقول: رحمك الله كما ربيتني صغيرًا، فتقول: ورحمك الله كما سررتني كبيرًا.

٣- روى البخاري (في الأدب المفرد) عن طيسلة بن مياسٍ، قال: قال لي ابن عمر: أتفرَقُ النارَ وتحب أن تدخل الجنة؟ قلت: إي والله، قال: أحيٌّ والدُك؟ قلت: عندي أمي، قال: فوالله لو ألَنْتَ لها الكلام، وأطعَمْتَها الطعام، لتدخلن الجنةَ ما اجتنبتَ الكبائر؛ صحيح الأدب المفرد – للألباني

٤- قال هشام بن حسان: قلتُ للحسن البصري: إني أتعلَّم القرآنَ، وإن أمي تنتظرني بالعَشاء،فقال الحسن: تَعَشَّ العَشاءَ مع أمك تقر به عينها، أحب إليَّ من حجةٍ تحجها تطوعًا؛

٥- لما ماتت أم إياس بن معاوية بكى، قيل له: ما يبكيك؟ قال: كان لي بابانِ مفتوحان إلى الجنة، وغُلِّق أحدُهما.

٦- علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب (زين العابدين) كان من سادات التابعين وكان كثير البر بأمه حتى قيل له: إنك من أبر الناس بأمك ولسنا نراك تأكل معها في صحفة، فقال: أخاف أن تسبق يدي إلى ما سبقت إليه عينها فأكون قد عققتها

٧- وقال محمد بن المنكدر: "بات أخي عمر يصلي وبتّ أغمز قدم أمي، وما أحبّ أن ليلته بليلتي".

وَوَصَّيْنَا الإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا

هذا من لطفه تعالى بعباده وشكره للوالدين أن وصى الأولاد وعهد إليهم أن يحسنوا إلى والديهم بالقول اللطيف والكلام اللين وبذل المال والنفقة وغير ذلك من وجوه الإحسان.

(**إِحْسَانًا**) فأطلق هذا الإحسان، فيشمل جميع صور الإحسان، من الإحسان بالقول، والإحسان بالفعل، والإحسان بالمال، والإحسان بالمعاشرة والمخالطة، بل الإحسان حتى في النظر إليهما، والإحسان حتى في المشاعر نحو الوالدين، وكل ما يمكن أن يتصور من الإحسان فهو داخل في هذه الآية، فأطلقه الله –تبارك وتعالى–، فيحسن في المخاطبة، ويحسن في المخالطة، ويحسن بالمال.

ثم نبه على ذكر السبب الموجب لذلك فذكر ما تحملته الأم من ولدها وما قاسته من المكاره وقت حملها ثم مشقة ولادتها المشقة الكبيرة ثم مشقة الرضاع وخدمة الحضانة، وليست المذكورات مدة يسيرة ساعة أو ساعتين،وإنما ذلك مدة طويلة قدرها (ثَلاثُونَ شَهْرًا) للحمل تسعة أشهر ونحوها والباقي للرضاع هذا هو الغالب.ويستدل بهذه الآية مع قوله: وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ أن أقل مدة الحمل ستة أشهر لأن مدة الرضاع – وهي سنتان– إذا سقطت منها السنتان بقي ستة أشهر مدة للحمل.

عظم حق الأم:

(حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا) أي: حملته على مشقة ومعاناة، وذلك أن الحمل إذا ثقل فإن ذلك يؤثر فيها غاية التأثير، كما هو معلوم في أمور كثيرة، وفي الوضع فيه من الآلام والمشقة، وذكر هذا بالنسبة للأم خاصة، يعني: الحمل والوضع، هذا كله مما تختص به الأم، والأب لا يشعر بشيء من ذلك، هذا إشارة إلى تأكد حق الأم، ولهذا جعل لها النبي –صلى الله عليه وسلم– حينما سئل: أي الناس أحق بحسن صحابتي؟ قال: أمك ثلاثًا

لأمِّكَ حقٌّ لو علِمْتَ كبيرُ كثيرُك يا هذا لديه يسيرُ

فكم ليلةٍ باتَتْ بثقلِكَ تشتكي لها مِن جَوَاها أنَّةٌ وزفيرُ

وفي الوَضْع لو تدري عليها مشقَّةٌ فمِن غُصَصٍ منها الفؤادُ يطيرُ

وكم غسَلَتْ عنكَ الأذى بيمينِها وما حَجْرُها إلا لديكَ سَريرُ

وكم مرَّةٍ جاعَتْ وأعطَتْكَ قُوتَها حنوًّا وإشفاقًا وأنت صغيرُ

فآهًا لذي عقلٍ ويتَّبِعُ الهوى وآهًا لأعمى القلبِ وَهْوَ بصيرُ

فدونَكَ فارغَبْ في عَميمِ دعائِها فأنتَ لِما تَدْعو إليه فقيرُ

إِنَّهَا الْأُمُّ، يَا مَنْ تُرِيدُ مَغْفِرَةَ الذُّنُوبِ وَسَتْرَ الْعُيُوبِ، يَأْتِي إِلَى النَّبِيِّ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- رَجُلٌ فَيَقُولُ: أَذْنَبْتُ ذَنْبًا كَبِيرًا؛ فَهَلْ لِي مِنْ تَوْبَةٍ؟! فَقَالَ النَّبِيُّ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: "هَلْ لَكَ مِنْ أُمٍّ؟!" قَالَ: لَا، قَالَ: "فَهَلْ لَكَ مِنْ خَالَةٍ؟!" قَالَ: نَعَمْ. قَالَ: "فَبِرَّهَا". [صحيح الترغيب للألباني: ٢٥٠٤].

رَجُلٌ مِنْ صَحَابَةِ النَّبِيِّ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- يَجْدُوهُ شَوْقُهُ إِلَى جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ، وَتَتَعَالَى هِمَّتُهُ لِاسْتِرْضَاءِ مَلِيكٍ مُقْتَدِرٍ؛ فَيَمْشِي إِلَى النَّبِيِّ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- فَيَقُولُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ: ائْذَنْ لِي بِالْجِهَادِ؛ فَقَالَ لَهُ النَّبِيُّ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: "هَلْ لَكَ مِنْ أُمٍّ؟!" قَالَ: نَعَمْ؛ فَقَالَ: "الْزَمْ رِجْلَهَا؛ فَثَمَّ الْجَنَّةُ".

قال أبو موسى الأشعري –رضي الله عنه–: شهد ابن عمر –رضي الله عنهما– رجلاً يطوف بالبيت قد حمل أمه وراء ظهره يقول:

إني لها بعيرها المذلل *** إن أذعرت ركابها لم أذعر

فقال: يا ابن عمر: أتراني جزيتها؟! قال: "لا، ولا وبزفرة واحدة، ولكنك أحسنتَ، والله يثيبك على الإحسان".

انتبه

- ✓ وليس من حسن الصحبة أن تجلس أمه إليه فرحة به وهو منشغل عنها بصحيفته أو بجواله أو بحاسوبه أو بغير ذلك؛ فإن هذا من سوء المجالسة والمخالطة القادح في حسن الصحبة، وهو مع غير الأم من سوء الأدب، ويخشى أن يكون مع الأم من العقوق؛ لأنه يدل على عدم اهتمامه بمجلسها، ولا إنصاته لحديثها، وكم يقع الأولاد في مثل ذلك وهم لا يشعرون.. دخل رجل على ابن سيرين وعنده أمه، فقال: ((ما شأن محمد يشتكي؟ قالوا: لا، ولكنه هكذا يكون إذا كان عند أمه)). وقيل: كان رحمه الله تعالى يكلم أمه كما يكلم الأمير ، وما ذاك إلا من توقيرها وتعظيمها وهيبتها.
- ✓ ومن حسن صحبة الولد لأمه أن يسعى في مصالحها، ويقوم على خدمتها، خاصة إذا احتاجت إلى ذلك لكبر أو مرض وفي قصة أصحاب الغار الثلاثة الذين انحدرت عليهم الصخرة فأغلقته فتوسلوا لله تعالى بصالح أعمالهم كان من أسباب التفريج عنهم أن أحدهم بالغ في خدمة والديه فأحضر اللبن لهما وقد ناما فمكث الليل كله واقفا به ينتظر استيقاظهما فسقاهما، واستقت أم ابن مسعود ماء في بعض الليالي، فذهب فجاءها بشربة، فوجدها قد ذهب بها النوم، فثبت بالشربة عند رأسها حتى أصبح.

(**حَتَّى إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ**) أي: نهاية قوته وشبابه وكمال عقله، (**وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي**) أي: ألهمني ووفقني (**أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ**) أي: نعم الدين ونعم الدنيا، وشكره بصرف النعم في طاعة مسديها وموليها ومقابلته منته بالاعتراف والعجز عن الشكر والاجتهاد في الثناء بها على الله، والنعم على الوالدين نعم على أولادهم وذريتهم لأنهم لا بد أن ينالهم منها ومن أسبابها وآثارها، خصوصا نعم الدين فإن صلاح الوالدين بالعلم والعمل من أعظم الأسباب لصلاح أولادهم.

(**وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ**) بأن يكون جامعا لما يصلحه سالما مما يفسده، فهذا العمل الذي يرضاه الله ويقبله ويثيب عليه. (**وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي**) لما دعا لنفسه بالصلاح دعا لذريته أن يصلح الله أحوالهم، وذكر أن صلاحهم يعود نفعه على والديهم لقوله: (وَأَصْلِحْ لِي)

(**إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ**) من الذنوب والمعاصي ورجعت إلى طاعتك (وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ)هذه الآية تضمنت معنى كبيرًا ينساه الكثيرون إذا بلغوا هذا السن، يقول الله تعالى: وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ، هو جاوز مرحلة الطيش، ومراحل الغفلة، فينبغي أن يكون راشدًا بحق، ويدعو بمثل هذا الدعاء، وأن يزداد بره بأبويه، وأن يترك ما كان فيه من الجهالات، والحماقات، والسفه، وما إلى ذلك، فتكون أقواله وأفعاله واقعة على وجه الصواب، والحكمة، ومقتضى العقل، والرشد، وتصرفاته موزونة، فلا يصلح لشيء من السفه، ومخالطة السفهاء.

(أُولَئِكَ) الذين ذكرت أوصافهم (الَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا) وهو الطاعات (وَنَتَجاوَزُ عَنْ سَيِّئَاتِهِمْ) فِي جملة (أَصْحَابِ الْجَنَّةِ) فحصل لهم الخير والمحبوب وزال عنهم الشر والمكروه.(وَعْدَ الصِّدْقِ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ) أي: هذا الوعد الذي وعدناهم هو وعد صادق من أصدق القائلين الذي لا يخلف الميعاد.

جَاءَ رَجُلٌ إِلَى النَّبِيِّ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ: هَلْ بَقِيَ مِنْ بِرِّ أَبَوَيَّ شَيْءٌ أَبَرُّهُمَا بِهِ بَعْدَ مَوْتِهِمَا؟! قَالَ: "نَعَمِ؛ الصَّلَاةُ عَلَيْهِمَا، وَالِاسْتِغْفَارُ لَهُمَا، وَإِنْفَاذُ عَهْدِهِمَا مِنْ بَعْدِهِمَا، وَصِلَةُ الرَّحِمِ الَّتِي لَا تُوصَلُ إِلَّا بِهِمَا، وَإِكْرَامُ صَدِيقِهِمَا".

(وَالَّذِي قَالَ لِوَالِدَيْهِ أُفٍّ لَكُمَا أَتَعِدَانِنِي أَنْ أُخْرَجَ وَقَدْ خَلَتِ الْقُرُونُ مِنْ قَبْلِي وَهُمَا يَسْتَغِيثَانِ اللَّهَ وَيْلَكَ آمِنْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَيَقُولُ مَا هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ * أُولَئِكَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ * وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِمَّا عَمِلُوا وَلِيُوَفِّيَهُمْ أَعْمَالَهُمْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ * وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُمْ بِهَا فَالْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنْتُمْ تَفْسُقُونَ) [الأحقاف : ١٧- ٢٠] .

لما ذكر تعالى حال الداعين للوالدين البارين بهما وما لهم عنده من الفوز والنجاة عطف بحال الأشقياء العاقين للوالدين، فقال: (**وَالَّذِي قَالَ لِوَالِدَيْهِ**) إذ دعواه إلى الإيمان بالله واليوم الآخر وخوفاه الجزاء.

وهذا أعظم إحسان يصدر من الوالدين لولدهما أن يدعواه إلى ما فيه سعادته الأبدية وفلاحه السرمدي فقابلهما بأقبح مقابلة فقال: (**أُفٍّ لَكُمَا**) أي: تبا لكما ولما جئتما به.

ثم ذكر وجه استبعاده وإنكاره لذلك فقال: (**أَتَعِدَانِنِي أَنْ أُخْرَجَ**) من قبري إلى يوم القيامة (**وَقَدْ خَلَتِ الْقُرُونُ مِنْ قَبْلِي**) على التكذيب وسلفوا على الكفر وهم الأئمة المقتدى بهم لكل كفور وجهول ومعاند؟ (**وَهُمَا**) أي: والداه (**يَسْتَغِيثَانِ اللَّهَ**) عليه ويقولان له: (**وَيْلَكَ آمِنْ**) أي: يبذلان غاية جهدهما ويسعيان في هدايته أشد السعي حتى إنهما – من حرصهما عليه– أنهما يستغيثان الله له استغاثة الغريق ويسألانه سؤال الشريق ويعذلان ولدهما ويتوجعان له ويبينان له الحق ، علم الأخيار أنه لا صلاح للأبناء والبنات إلا بالله، وأنه لا يهدي قلوبهم أحدٌ عداه، فصدعوا إلى ربهم بالدعوات، ما أحوج بناتك وأبنائك إلى دعواتك الصالحة قال الله عن عبده الخليل عليه من الله الصلاة والسلام: **رب اجعلني مقيم الصلاة ومن ذريتي ربنا وتقبل دعاء** [إبراهيم:٤٠]. وقال الله عن نبيه زكرياً: **رب هب**

لي من لدنك ذرية طيبة إنك سميع الدعاء آل عمران:٨]. قل كما قال الأخيار، وصفوة عباد الله الأبرار: **ربنا هب لنا من أزواجنا وذرياتنا قرة أعين واجعلنا للمتقين إماماً** [الفرقان:٧٤].

فيقولان: (**إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ**) ثم يقيمان عليه من الأدلة ما أمكنهما، وولدهما لا يزداد إلا عتوا ونفورا واستكبارا عن الحق وقدحا فيه، (**فَيَقُولُ مَا هَذَا إِلا أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ**) أي: إلا منقول من كتب المتقدمين ليس من عند الله ولا أوحاه الله إلى رسوله.

(**أُولَئِكَ الَّذِينَ**) بهذه الحالة الذميمة (**حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ**) أي: حقت عليهم كلمة العذاب (**فِي**) جملة (**أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْجِنِّ وَالإِنْسِ**) على الكفر والتكذيب فسيدخل هؤلاء في غمارهم وسيغرقون في تيارهم.

(**إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ**) والخسران فوات رأس مال الإنسان، وإذا فقد رأس ماله فالأرباح من باب أولى وأحرى، فهم قد فاتهم الإيمان ولم يحصلوا على شيء من النعيم ولا سلموا من عذاب الجحيم.

(**وَلِكُلٍّ**) من أهل الخير وأهل الشر (**دَرَجَاتٌ مِمَّا عَمِلُوا**) أي: كل على حسب مرتبته من الخير والشر ومنازلهم في الدار الآخرة على قدر أعمالهم ولهذا قال: (**وَلِيُوَفِّيَهُمْ أَعْمَالَهُمْ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ**) بأن لا يزاد في سيئاتهم ولا ينقص من حسناتهم.

وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُمْ بِهَا فَالْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنْتُمْ تَفْسُقُونَ (٢٠) .

يذكر تعالى حال الكفار عند عرضهم على النار حين يوبخون ويقرعون فيقال لهم: (أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا) حيث اطمأننتم إلى الدنيا، واغتررتم بلذاتها ورضيتم بشهواتها وألهتكم طيباتها عن السعي لآخرتكم وتمتعتم تمتع الأنعام السارحة فهي حظكم من آخرتكم، (فَالْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ) أي: العذاب الشديد الذي يهينكم ويفضحكم بما كنتم تقولون على الله غير الحق، أي: تنسبون الطريق

الضالة التي أنتم عليها إلى الله وإلى حكمه وأنتم كذبة في ذلك، (وَبِمَا كُنْتُمْ تَفْسُقُونَ) أي: تتكبرون عن طاعته، فجمعوا بين قول الباطل والعمل بالباطل والكذب على الله بنسبته إلى رضاه والقدح في الحق والاستكبار عنه فعوقبوا أشد العقوبة.

عقوق الوالدين

غَذَوْتُكَ مَوْلُودًا وَعُلْتُكَ يَافِعًا *** تُعَلُّ بما أجْنِي عَلَيْكَ وَتَنْهَلُ

إِذَا لَيْلَةٌ نَابَتْكَ بِالشَّجْوِ لَمْ أَبِتْ *** لِشَكْوَاكَ إِلاَّ سَاهِرًا أَتَمَلْمَلُ

كَأَنِّي أَنَا الْمَطْرُوقُ دُونَكَ بالَّذِي *** طُرِقْتَ به دُوني فَعَيْنِيَ تَهْمُلُ

تَخَافُ الرَّدى نَفْسِي عَلَيْكَ وَإِنَّني *** لأَعْلَمُ أَنَّ الْمَوتَ حَتْمٌ مُؤَجَّلُ

فَلَمَّا بلَغْتَ السِّنَّ والغَايَةَ التِي *** إِلَيْها مَدَى ما كُنتُ فِيكَ أُؤَمِّلُ

جَعَلْتَ جَزَائِي غِلْظَةً وَفَظَاظَةً *** كَأَنَّك أَنْتَ الْمُنْعِمُ الْمُتَفَضِّلُ

فَلَيْتَكَ إِذْ لَمْ تَرْعَ حَقَّ أُبُوَّتِي *** فَعَلْتَ كَمَا الْجَارُ الْمُجَاوِرُ يَفْعَلُ

يقول رسول الله –صلى الله عليه وسلم –: "ألا أنبئكم بأكبر الكبائر؟ قلنا: بلى يا رسول الله. قال: الإشراك بالله، وعقوق الوالدين..."الحديث. وعن المغيرة بن شعبة –رضي الله عنه –عن رسول الله – صلى الله عليه وسلم –قال: "إن الله –عز وجل –حرم عليكم عقوق الأمهات، ووأْد البنات... "الحديث.

عاقبة العقوق:

١–يستجلب **غضب الرب** –سبحانه–: قال رسول الله –صلى الله عليه وسلم–: (رِضَا الرَّبِّ فِي رِضَا الْوَالِدِ، وَسَخَطُ الرَّبِّ فِي سَخَطِ الْوَالِدِ) (رواه الترمذي، وصححه الألباني).

٢-يعرض **نفسه لدعاء والديه عليه**، ودعاؤهما مستجاب فقد ورد في الحديث: "ثلاث دعوات مستجابات لا شك فيهنَّ: دعوة المظلوم، ودعوة المسافر، ودعوة الوالد على ولده".

٣-سبب **في حبوط الأعمال أو ردها على صاحبها**: قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: (ثَلاثَةٌ لا يَقْبَلُ اللَّهُ لَهُمْ صَرْفًا وَلا عَدْلا: عَاقٌّ، وَمَنَّانٌ، وَمُكَذِّبٌ بِالْقَدَرِ) (رواه الطبراني، وحسنه الألباني).

٤-يمحق **بركة الرزق والعمر**: عن أنس بن مالك -رضي الله عنه-: قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: (مَنْ سَرَّهُ أَنْ يُبْسَطَ لَهُ فِي رِزْقِهِ، وَأَنْ يُنْسَأَ لَهُ فِي أَثَرِهِ، فَلْيَصِلْ رَحِمَهُ) رواه البخاري ومسلم.

٥-عقوبة **معجلة في الدنيا قبل الآخرة**: قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: (بابانِ مَعَجَّلانِ عُقُوبَتُهُما فِي الدُّنْيا: البَغْيُ والعُقُوقُ) (رواه الحاكم، وصححه الألباني).

قصة مؤثرة (الجزاء من جنس العمل): "هذه أم تجلس مع أطفالها كل يوم وهم يدرسون، وكان والد زوجها شيخ مسن كبير يعيش معهم في البيت، ولكن في غرفة منعزلة في حديقة البيت، كل يوم تذهب إليه تضع له الطعام ثم تعود إلى أولادها تلعب معهم وتقوم على تربيتهم، وفي يوم من الأيام رأت أحد أولادها الصغار يلعب في ورقة وقلم يرسم مربعات في وسط الورقة، فسألت الأم: يا بني ماذا ترسم؟ فأجاب: أرسم بيت المستقبل! فرحت الأم لجوابه، ثم قالت: ولماذا هذا المربع بعيد عن البيت؟ فقال: هذه غرفتك في المستقبل، فقالت له متعجبة: ستجعلني في غرفة وحدي؟ فقال: نعم، كما أنت تجعلين جدي في غرفة منعزلة وحده!فكانت هذه الكلمات البريئة كالصاعقة لهذه الأم، فتأثرت لموعظة الطفل الصغير، وذهبت وغيرت أثاث البيت، وجاءت بالجد إلى داخل السكن في أفضل غرفة في البيت، وعندما عاد زوجها تعجب أن الجد داخل البيت، فقال لها: ماذا حدث؟ فقالت له ما قاله الطفل فتأثر تأثرًا شديدًا وشكرها على ذلك"

٦- **سبب في الحرمان من الجنة**: قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: (لا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مَنَّانٌ، وَلا عَاقٌّ وَالِدَيْهِ، وَلا مُدْمِنُ خَمْرٍ) (رواه أحمد والنسائي، وصححه الألباني).

وَاذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنْذَرَ قَوْمَهُ بِالْأَحْقَافِ وَقَدْ خَلَتِ النُّذُرُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ * قَالُوا أَجِئْتَنَا لِتَأْفِكَنَا عَنْ آلِهَتِنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ * قَالَ إِنَّمَا الْعِلْمُ عِنْدَ اللَّهِ وَأُبَلِّغُكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ وَلَكِنِّي أَرَاكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ * فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا هَذَا عَارِضٌ مُمْطِرُنَا بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُمْ بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ * تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا لَا يُرَى إِلَّا مَسَاكِنُهُمْ كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ

الأحقاف: ٢١-٢٥.

الفائدة من قصة قوم هود:

١- تسليه لنبيه -صلى الله عليه وسلم- في تكذيب من كذب من قومه، يكون المعنى: **وَاذْكُرْ يعني: في نفسك.**

٢- **وَاذْكُرْ أي: لقومك**؛ ليتعظوا ويعتبروا وينزجروا بما وقع لغيرهم، فالعاقل من وُعظ بغيره، والشقي من وعظ بنفسه.

(وَاذْكُرْ أَخَا عَادٍ) هود عليه السلام ، بعثه الله إلى عاد (وَإِلَى عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا) الأعراف:٦٥، وقال تعالى (كَذَّبَتْ عَادٌ الْمُرْسَلِينَ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلا تَتَّقُونَ) .

قصة هود في القرآن:

ذُكرت هذه القصة في سور متعددة من سور القرآن الكريم، تارة بصورة فيها بعض التفصيل، كما في سور: الأعراف، هود، المؤمنون، الشعراء، الأحقاف. وتارة بصورة موجزة، كما في سور: فصلت، الذاريات، القمر، الحاقة، الفجر. وقد سميت سورة كاملة بسورة هود، تضمنت قصص عدد من الرسل عليهم السلام، وكان من بينها قصة هود مع قومه. قال ابن كثير: "وقد ذكر الله قصتهم في القرآن في غير ما موضع؛ ليعتبر بمصرعهم المؤمنون".

مساكن قوم عاد:

كانوا يسكنون الأحقاف جمع حُقُف وهو الجبل من الرمل، الجبل المستطيل المعوج من الرمل. قال قتادة: ذُكر لنا أن عادًا كانوا حيًّا باليمن أهل رمل مشرفين على البحر بأرض يقال لها: الشِّحْر. والشحر معروفة إلى اليوم بحضرموت.

- أن عادا هم أول من عبد الأصنام بعد الطوفان، وأول أمة أهلكها الله تعالى بذنوبهم وشركهم بعد أمة نوح عليه السلام ، ولهذا يأتي ذكرهم في القرآن بعد ذكر قصة قوم نوح مباشرة في عدة سور من كتاب الله تعالى، كما في الأعراف في قوله تعالى: وَاذْكُرُواْ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاء مِن بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ {الأعراف:٦٩}، وفي سورة المؤمنون، في قوله تعالى: ثُمَّ أَنشَأْنَا مِن بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ {المؤمنون:٣١}، وكذلك في الشعراء.
- قوم عاد وتمكين الله لهم في الأرض:

وصف الله سبحانه وتعالى قوم عاد بالقوة العظيمة والتمكين في الأرض، وذكر ما عاشوا فيه من قصور كانوا ينحتونها في الجبال، عاشوا ردها من الزمن في حياة هنية ورغد من العيش، حباهم الله سبحانه نعمًا وافرة وخيرات جليلة ففجروا العيون، وزرعوا الأرض وأنشؤوا البساتين وشيدوا القصور، وخصهم الله -عز وجل- فوق ذلك كله بسطة في أجسامهم، وقوة في أبدانهم، وآتاهم ما لم يؤتِ أحدًا من العالمين، ولكنهم لم يفكروا في مبدأ هذا الخلق ولم يحاولوا التعرف إلى مصدر هذه النعم، وغاية ما وصلت إليه عقولهم وارتاحت إليه طباعهم أن اتخذوا أصنامًا لهم آلهة.

وذكر الله سبحانه في سورة الشعراء كيف مكن قوم عاد وأعطاهم من نعمه، وأن نبيهم هود عليه الصلاة والسلام ذكرهم بالله سبحانه وتعالى، وأنه مكن لهم في الأرض، فعبدوا غيره، قال الله تعالى عن هود أنه قال لهم: أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ * وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ * وَإِذَا بَطَشْتُمْ بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ * فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ [الشعراء:١٢٨-١٣١] ففي هذا السياق جاء الوصف للبناء الذي كانوا يبنوه،

ومعنى (ريع): كل مكان مشرف من الأرض مرتفع أو طريق أو واد(٣)، وقال ابن كثير: يبنون هناك بنياناً محكماً هائلاً باهراً، ولهذا قال ﴿أتبنون بكل ريع آية﴾، أي معلماً بناءاً مشهوراً، ﴿تعبثون﴾ أي وإنما تفعلون ذلك عبثاً لا للاحتياج إليه بل لمجرد اللعب واللهو وإظهار القوة، ﴿وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ﴾، المصانع هي القصور المشيدة، وقيل هي الحصون المرتفعة، ومعنى ﴿لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ﴾: أي لكي تقيموا فيها أبداً، وذلك ليس بحاصل لكم بل زائل عنكم كما زال عمن كان قبلكم.

وقال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ * إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ* الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ﴾ [الفجر: ٦-٨]

خلاصة القصة:

(**إِذْ أَنْذَرَ قَوْمَهُ بِالْأَحْقَافِ وَقَدْ خَلَتِ النُّذُرُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ**) فلم يكن بدعا منهم ولا مخالفا لهم، قائلا لهم:(**أَلا تَعْبُدُوا إِلا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ**)فأمرهم بعبادة الله الجامعة لكل قول سديد وعمل حميد، ونهاهم عن الشرك وخوفهم – إن لم يطيعوه– العذاب الشديد فلم تفد فيهم تلك الدعوة.

هذه دعوة جميع الرسل ، الدعوة إلى عبادة الله وحده ، وترك الشرك ، وهذا معنى : لا إله إلا الله : أي : لا معبود حق إلا الله .

{يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ} [سورة الأعراف، الآية: ٦٥].

وقد كان خطابه لقومه عليه السلام خطاب الناصح المشفق عليهم، الذي يريد الخير لهم، ويتألم لما هم عليه من الشرك والضلال، يرشد لهذا قوله: **{أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ}** [سورة الأعراف، الآية: ٦٨].

وبين لقومه أنهم إن تركوا ما هم فيه من الضلال والغي، والتزموا شرع الله، فإن الله سوف يفتح عليهم من خزائن رحمته، ويمدهم من فضله، ويزيدهم قوة إلى قوتهم، وغنى إلى غناهم، **{وَيَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ}** [سورة هود، الآية: ٥٢].

غير أن هذا التذكير لم يزيد قومه إلا إصراراً في غيهم، وعناداً في ضلالهم، حيث أجابوه بقولهم: **{قَالُوا أَجِئْتَنَا لِتَأْفِكَنَا عَنْ آلِهَتِنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ}** [سورة الأحقاف، الآية: ٢٢]، استعجلوا عذاب الله وعقوبته استبعادًا منهم وقوعه، وكانوا يتفاخرون بقوتهم، ويتباهون ببطشهم، ويتطاولون بشدة بأسهم، **{وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً}** [سورة فصلت، الآية: ١٥]، ويقولون لرسولهم وهو ينصح لهم: **{سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُن مِّنَ الْوَاعِظِينَ}** [سورة الشعراء، الآية: ١٣٦].

(**قَالَ إِنَّمَا الْعِلْمُ عِنْدَ اللَّهِ**)أي: الله أعلم بكم، إن كنتم مستحقين لتعجيل العذاب فسيفعل ذلك بكم، وأما أنا فمن شأني أني أبلغكم ما أرسلت به.

(**وَأُبَلِّغُكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ**) أي : وأما أنا فمن شأني أني أبلغكم ما أرسلت به .

(**وَلَكِنِّي أَرَاكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ**) أي: لا تعقلون، ولا تفهمون. تجهلون ربكم سبحانه، وتجهلون ضعفكم،فمن جهل الإنسان: ألا يعرف نفسه ولا يعرف أنه ضعيف، ولذلك فإن الله يذكره بحوادث الدهر، وينزل عليه المصائب، فيمرض أو يضيع منه ماله، أو يفقد الولد وغير ذلك من حوادث الدهر؛ حتى يتذكر أنه مخلوق ضعيف.

(**فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ**) أي: لما رأوا العذاب مستقبلهم اعتقدوا أنه عارض ممطر، ففرحوا واستبشروا به، وقد كانوا مُمْحلين محتاجين إلى المطر.

- سمي السحاب عارضاً لأنه يبدو في عُرْض السماء .

(**بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُمْ بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ**) أي: هو العذاب الذي قلتم: فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ.

(**تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ**) تمر عليه من شدتها ونحسها.(**بِأَمْرِ رَبِّهَا**)أي: بإذنه ومشيئته . **فَأَصْبَحُوا لا يُرَى إِلا مَسَاكِنُهُمْ** قد تلفت مواشيهم وأموالهم وأنفسهم. **كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ** بسبب جرمهم وظلمهم.

فسلطها الله عليهم سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى كَأَنَّهُمْ أَعْجز وقال تعالى (وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ . مَا تَذَرُ مِنْ شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَالرَّمِيمِ) از نَخْلٍ خَاوِيَةٍ،

انظر إلى هؤلاء العتاة الذين أعطاهم الله قوة، وتمكينًا، وبسطة في الأجسام،أهلكوا بالريح ، وقوم نوح – صلى الله عليه وسلم– أهلكوا بالماء الذي هو ألطف الأشياء، وهكذا فرعون، وهكذا الإهلاك بالصيحة، يعني: بهذه الأمور: الماء، والهواء، والصوت الشديد المزعج المرتفع المهلك، صوت ويموت الخلق، بهذا الماء يغرقون، أو بهذا الهواء، فما أضعف الخلق وأهونهم على الله –تبارك وتعالى– إذا عصوا أمره!.

وروى الإمام أحمد:عن عائشة–رضي الله عنها– أنها قالت: ما رأيت رسول الله –صلى الله عليه وسلم– مستجمعًا ضاحكًا حتى أرى منه لهواته، إنما كان يبتسم، وقَالَتْ: وَكَانَ رسول الله –صلى الله عليه وسلم– إِذَا رَأَى غَيْمًا –أَوْ رِيحًا– عُرِفَ ذَلِكَ فِي وَجْهِهِ، قَالَتْ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إن النَّاس إِذَا رَأَوُا الْغَيْمَ فَرِحُوا رَجَاءَ أَنْ يَكُونَ فِيهِ الْمَطَرُ، وَأَرَاكَ إِذَا رَأَيْتَهُ عَرَفْتُ فِي وَجْهِكَ الْكَرَاهِيَةَ؟ فَقَالَ رسول الله –صلى الله عليه وسلم–: (يَا عَائِشَةُ، مَا يُؤَمِّنُنِي أَنْ يَكُونَ فِيهِ عَذَابٌ، قَدْ عُذِّبَ قَوْمٌ بِالرِّيحِ، وَقَدْ رَأَى قَوْمٌ الْعَذَابَ وَقَالُوا: هَذَا عَارِضٌ مُمْطِرُنَا)، وَأَخْرَجَه البخاري ومسلم.

روى الإمام أَحْمَدُ: عَنْ عَائِشَةَ –رضي الله عنها– قالت: إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ –صلى الله عليه وسلم– كَانَ إِذَا رَأَى نَاشِئًا فِي أُفُقٍ مِنْ آفَاقِ السَّمَاءِ تَرَكَ عَمَلَهُ وَإِنْ كَانَ فِي صَلَاتِهِ، ثُمَّ يَقُولُ: (اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ

شَرِّ مَا فِيهِ)، فَإِنْ كَشَفَهُ اللَّهُ حَمِدَ اللَّهَ -تعالى-، وَإِنْ أَمْطَرَ قَالَ: (اللَّهُمَّ صَيِّبًا نَافِعًا) صححه الألباني في صحيح أبي داود.

وقَالَ مُسْلِمٌ فِي صَحِيحِهِ: عَنْ عَائِشَةَ -رضي الله عنها- قَالَتْ: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ -صلى الله عليه وسلم- إِذَا عَصَفَتِ الرِّيحُ قَالَ: (اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ خَيْرَهَا، وَخَيْرَ مَا فِيهَا، وَخَيْرَ مَا أُرْسِلَتْ بِهِ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّهَا، وَشَرِّ مَا فِيهَا، وَشَرِّ مَا أُرْسِلَتْ بِهِ)، قَالَتْ: وَإِذَا تَخَيَّلت السَّمَاءُ تَغَيَّرَ لَوْنُهُ، وَخَرَجَ وَدَخَلَ، وَأَقْبَلَ وَأَدْبَرَ، فَإِذَا أَمَطَرَتْ سُرِّيَ عَنْهُ، فَعَرَفَتْ ذَلِكَ عَائِشَةُ -رضي الله عنها-، فَسَأَلَتْهُ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ -صلى الله عليه وسلم-: (لَعَلَّهُ يَا عَائِشَةُ كَمَا قَالَ قَوْمُ عَادٍ: فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا هَذَا عَارِضٌ مُمْطِرُنَا).

هذا مع أن الله تعالى قد أدر عليهم النعم العظيمة فلم يشكروه ولا ذكروه ولهذا قال: **وَلَقَدْ مَكَّنَّاهُمْ فِيمَا إِنْ مَكَّنَّاكُمْ** فِيهِ أي: مكناهم في الأرض يتناولون طيباتها ويتمتعون بشهواتها

وعمرناهم عمرا يتذكر فيه من تذكر، ويتعظ فيه المهتدي، أي: ولقد مكنا عادا كما مكناكم يا هؤلاء المخاطبون أي: فلا تحسبوا أن ما مكناكم فيه مختص بكم وأنه سيدفع عنكم من عذاب الله شيئا، بل غيركم أعظم منكم تمكينا فلم تغن عنهم أموالهم ولا أولادهم ولا جنودهم من الله شيئا.

وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَارًا وَأَفْئِدَةً أي: لا قصور في أسماعهم ولا أبصارهم ولا أذهانهم. **فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلا أَبْصَارُهُمْ وَلا أَفْئِدَتُهُمْ مِنْ شَيْءٍ** لا قليل ولا كثير، وذلك بسبب أنهم يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ الدالة على توحيده وإفراده بالعبادة.

وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ أي: نزل بهم العذاب الذي يكذبون بوقوعه ويستهزئون بالرسل الذين حذروهم منه.

فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا هَٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُم بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ (٢٤) تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا لَا يُرَىٰ إِلَّا مَسَاكِنُهُمْ كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ (٢٥) وَلَقَدْ مَكَّنَّاهُمْ فِيمَا إِن مَّكَّنَّاكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَارًا وَأَفْئِدَةً فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَا أَبْصَارُهُمْ وَلَا أَفْئِدَتُهُم مِّن شَيْءٍ إِذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ (٢٦)

(**فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ**) أي: لما رأوا العذاب مستقبلهم اعتقدوا أنه عارض ممطر، ففرحوا واستبشروا به، وقد كانوا مُمْحلين محتاجين إلى المطر.

- سمي السحاب عارضاً لأنه يبدو في عُرْض السماء .

(**بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُمْ بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ**) أي: هو العذاب الذي قلتم: فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ.

(**تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ**) تمر عليه من شدتها ونحسها.(**بِأَمْرِ رَبِّهَا**) أي : بإذن الله لها في ذلك ، كقوله : (ما تذر من شيء أتت عليه إلا جعلته كالرميم) [الذاريات : ٤٢] أي : كالشيء البالي .**فَأَصْبَحُوا لا يُرَى إِلا مَسَاكِنُهُمْ** قد تلفت مواشيهم وأموالهم وأنفسهم. **كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ** بسبب جرمهم وظلمهم.

فسلطها الله عليهم سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا ﴿وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ (٦) سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ (٧) فَهَلْ تَرَى لَهُمْ مِنْ بَاقِيَةٍ (٨)﴾ [الحاقة]

وقفة

انظر إلى هؤلاء العتاة الذين أعطاهم الله قوة، وتمكينًا، وبسطة في الأجسام،أهلكوا بالريح ، وقوم نوح – صلى الله عليه وسلم– أهلكوا بالماء الذي هو ألطف الأشياء، وهكذا فرعون، وهكذا الإهلاك بالصيحة، يعني: بهذه الأمور: الماء، والهواء، والصوت الشديد المزعج المرتفع المهلك، صوت ويموت الخلق، بهذا الماء يغرقون، أو بهذا الهواء، فما أضعف الخلق وأهونهم على الله –تبارك وتعالى– إذا عصوا أمره!.

وقفة

يذكّرنا هبوب الرياح الشديدة بما حصل لبعض الأمم السابقة ممن كتب الله عليهم العذاب بكفرهم وعصيانهم

- ✓ عن عائشة–رضي الله عنها– أنها قالت: ما رأيت رسول الله –صلى الله عليه وسلم– مستجمعًا ضاحكًا حتى أرى منه لهواته، إنما كان يبتسم، وقَالَتْ: وَكَانَ رسول الله –صلى الله عليه وسلم– إِذَا رَأَى غَيْمًا –أَوْ رِيحًا– عُرِفَ ذَلِكَ فِي وَجْهِهِ، قَالَتْ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إن النَّاس إِذَا رَأَوُا الْغَيْمَ فَرِحُوا رَجَاءَ أَنْ يَكُونَ فِيهِ الْمَطَرُ، وَأَرَاكَ إِذَا رَأَيْتَهُ عَرَفْتُ فِي وَجْهِكَ الْكَرَاهِيَةَ؟ فَقَالَ رسول الله – صلى الله عليه وسلم–: (يَا عَائِشَةُ، مَا يُؤَمِّنُنِي أَنْ يَكُونَ فِيهِ عَذَابٌ، قَدْ عُذِّبَ قَوْمٌ بِالرِّيحِ، وَقَدْ رَأَى قَوْمٌ الْعَذَابَ وَقَالُوا: هَذَا عَارِضٌ مُمْطِرُنَا)، وَأَخْرَجَه البخاري ومسلم.
- ✓ روى الإمام أَحْمَدُ: عَنْ عَائِشَةَ –رضي الله عنها– قالت: إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ –صلى الله عليه وسلم– كَانَ إِذَا رَأَى نَاشِئًا فِي أُفُقٍ مِنْ آفَاقِ السَّمَاءِ تَرَكَ عَمَلَهُ وَإِنْ كَانَ فِي صَلَاتِهِ، ثُمَّ يَقُولُ: (اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ مَا فِيهِ)، فَإِنْ كَشَفَهُ اللَّهُ حَمِدَ اللَّهَ –تعالى–، وَإِنْ أَمْطَرَ قَالَ: (اللَّهُمَّ صَيِّبًا نَافِعًا) صححه الألباني في صحيح أبي داود.

وعَنْ عَائِشَةَ –رضي الله عنها– قَالَتْ: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ –صلى الله عليه وسلم– إِذَا عَصَفَتِ الرِّيحُ قَالَ: (اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ خَيْرَهَا، وَخَيْرَ مَا فِيهَا، وَخَيْرَ مَا أُرْسِلَتْ بِهِ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّهَا، وَشَرِّ مَا فِيهَا، وَشَرِّ

مَا أُرْسِلَتْ بِهِ)، قَالَتْ: وَإِذَا تَخَيَّلت السَّمَاءُ تَغَيَّرَ لَوْنُهُ، وَخَرَجَ وَدَخَلَ، وَأَقْبَلَ وَأَدْبَرَ، فَإِذَا أَمطَرَتْ سُرِّيَ عَنْهُ، فَعَرَفَتْ ذَلِكَ عَائِشَةُ -رضي الله عنها-، فَسَأَلَتْهُ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ -صلى الله عليه وسلم-: (لَعَلَّهُ يَا عَائِشَةُ كَمَا قَالَ قَوْمُ عَادٍ: فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا هَذَا عَارِضٌ مُمْطِرُنَا).رواه مسلم

قال ابن بطال وفيه : تذكر ما نسى الناس من عذاب الله للأمم الخالية ، والتحذير من طريقهم فى العصيان خشية نزول ما حلّ بهم ،

هذا مع أن الله تعالى قد أدر عليهم النعم العظيمة فلم يشكروه ولا ذكروه ولهذا قال: **وَلَقَدْ مَكَّنَّاهُمْ فِيمَا إِنْ مَكَّنَّاكُمْ** فِيهِ أي: مكناهم في الأرض يتناولون طيباتها ويتمتعون بشهواتها وعمرناهم عمرا يتذكر فيه من تذكر، ويتعظ فيه المهتدي، أي: ولقد مكنا عادا كما مكناكم يا هؤلاء المخاطبون أي: فلا تحسبوا أن ما مكناكم فيه مختص بكم وأنه سيدفع عنكم من عذاب الله شيئا، بل غيركم أعظم منكم تمكينا فلم تغن عنهم أموالهم ولا أولادهم ولا جنودهم من الله شيئا.

وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَارًا وَأَفْئِدَةً أي: لا قصور في أسماعهم ولا أبصارهم ولا أذهانهم. **فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلا أَبْصَارُهُمْ وَلا أَفْئِدَتُهُمْ مِنْ شَيْءٍ** لا قليل ولا كثير، وذلك بسبب أنهم يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ الدالة على توحيده وإفراده بالعبادة.

وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ أي: نزل بهم العذاب الذي يكذبون بوقوعه ويستهزئون بالرسل الذين حذروهم منه.

وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنْصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَى قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ * قَالُوا يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنْزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَى طَرِيقٍ مُسْتَقِيمٍ * يَا قَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَآمِنُوا بِهِ يَغْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ * وَمَنْ لا يُجِبْ دَاعِيَ اللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي الأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُ مِنْ دُونِهِ أَولِيَاءُ أُوْلَئِكَ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ [الأحقاف:٢٩-٣٢].

يقول تعالى مخبراً نبيه صلى الله عليه وسلم: وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ هذه السورة سورة مكية، وقد نزلت لما كان صلى الله عليه وسلم في مكة يدعو إلى الله.

قصة النبي في الطائف

تكالبت الأحزان على النبي صلى الله عليه وسلم وزادت عليه همومه وتضاعفت بوفاة أم المؤمنين خديجة رضي الله عنها، وعمه أبي طالب في عام واحد، فخديجة كانت خير ناصر ومعين له -بعد الله تعالى-، وعمه كان يحوطه ويحميه ، ويحبه أشد الحب، وضاعف من حزنه صلى الله عليه وسلم أنه مات كافراً .

في شوال سنة عشر من النبوة خرج النبي صلى الله عليه وسلم إلى الطائف، وهي تبعد عن مكة نحو خمسة وثمانين كيلو مترًا ، سارها ماشيًا على قدميه جيئة وذهوبًا، ومعه مولاه زيد بن حارثة، وكان كلما مر على قبيلة في الطريق دعاهم إلى الإسلام، فلم تجب إليه واحدة منها.

فلما انتهي إلى الطائف عمد ثلاثة إخوة من رؤساء ثقيف، وهم عبد ياليل ومسعود وحبيب أبناء عمرو بن عمير الثقفي، فجلس إليهم ودعاهم إلى الله ، وإلى نصرة الإسلام، فقال أحدهم: هو يَمْرُط ثياب الكعبة [أي يمزقها] إن كان الله أرسلك. وقال الآخر: أما وَجَدَ الله أحدًا غيرك، وقال الثالث:والله لا أكلمك أبدًا، إن كنت رسولًا لأنت أعظم خطرًا من أن أرد عليك الكلام، ولئن كنت تكذب على الله

ما ينبغى أن أكلمك. فقام عنهم رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال لهم: [إذ فعلتم ما فعلتم فاكتموا عني].

وأقام رسول الله صلى الله عليه وسلم بين أهل الطائف عشرة أيام، لا يدع أحدًا من أشرافهم إلا جاءه وكلمه، فقالوا: اخرج من بلادنا. وأغروا به سفهاءهم، فلما أراد الخروج تبعه سفهاؤهم وعبيدهم يسبونه ويصيحون به، حتى اجتمع عليه الناس، فوقفوا له سِمَاطَيْن [أي صفين] وجعلوا يرمونه بالحجارة، وبكلمات من السفه، ورجموا عراقيبه، حتى اختضب نعلاه بالدماء. وكان زيد بن حارثة يقيه بنفسه حتى أصابه شِجَاج في رأسه، ولم يزل به السفهاء كذلك حتى ألجأوه إلى حائط لعتبة وشيبة ابني ربيعة على ثلاثة أميال من الطائف، فلما التجأ إليه رجعوا عنه، وأتى رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى حُبْلَة من عنب فجلس تحت ظلها إلى جدار. فلما جلس إليه واطمأن، دعا بالدعاء المشهور الذي يدل على امتلاء قلبه كآبة وحزنًا مما لقى من الشدة، وأسفًا على أنه لم يؤمن به أحد، قال:

(**اللهم إليك أشكو ضعف قوتي وقلة حيلتي وهواني على الناس، يا أرحم الراحمين، أنت رب المستضعفين وأنت ربي، إلى من تكلني؟ إلى بعيد يتجهمني؟ أم إلى عدو ملكته أمري؟ إن لم يكن بك غضبٌ عليَّ فلا أبالي، ولكن عافيتك هي أوسع لي، أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت له الظلمات، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة من أن تنزل بي غضبك أو يحل علي سخطك، لك العتبى حتى ترضى، ولا حول ولا قوة إلا بك**) قال ابن القيم:"هذا الحديث كبير جليل تنادي جلالته وفخامته وعظمته على أنه قد خرج من مشكاة النبوة".

كان هذا الموقف من أشد المواقف التى واجهها الرسول – صلى الله عليه وسلم – فى دعوته، وظل يتذكره طوال حياته وعلى الرغم من كثرة الشدائد والأهوال التى لاقها الرسول صلى الله عليه وسلم فى دعوته إلا إن هذا الموقف كان أشدهم ألماً لنفسه وحزناً لقلبه، فقد أخرج البخارى عن عائشة أنها قالت لرسول الله – صلى الله عليه وسلم –: هل أتى عليك يوم كان أشد عليك من يوم أحد ؟ قال: ما

لقيت من قومك كان أشد فيه منه يوم العقبة، إذا عرضت نفسى على ابن عبد الله ياليل بن عبد كلال، فلم يجبنى إلى ما أردت فانطلقت مهموماً على وجهى فلم أستفق إلا وأنا بقرن الثعالب، فرفعت رأسى فإذا بسحابة قد أظلتنى، فنظرت فإذا هو جبريل – عليه السلام – فنادانى، فقال: إن الله قد سمع قول قومك لك وما ردوا عليك، وقد بعث إليك ملك الجبال لتأمره بما شئت فيهم، ثم نادانى ملك الجبال، فسلم على، ثم قال: يا محمد ! إن الله – عز وجل – قد سمع قول قومك، وأنا ملك الجبال، وقد بعثنى إليك ربك لتأمرنى بما شئت: إن شئت نطبق عليهم الأخشبين، فقال له رسول الله – صلى الله عليه وسلم –: بل أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يعبد الله ولا يشرك به شيئاً.

وَإِذا عَفَوتَ فَقادِراً وَمُقَدَّراً لا يَستَهينُ بِعَفوِكَ الجُهَلاءُ

وَإِذا رَحِمتَ فَأَنتَ أُمٌّ أَو أَبٌ هَذانِ في الدُنيا هُما الرُحَماءُ

لقد دارت رحى الأيام بالنبي صلى الله عليه وسلم ليأتي اليوم الموعود الذي يفتحُ الله به عليه مكة فيطوّق بلد من طردوه وشتموه وآذوه وقاتلوه

وزلزل بهم المؤمنون زلزالاً شديدًا، ويدخل المسجد الحرام ويطوف به ثم يجلسُ بالمسجد والناس من حوله والعيون شاخصةٌ إليه،

والقوم مشرئبون إلى معرفة صنيعه بأعدائه شروخِهم وشيوخهم، فلربما فعل بهم الأفاعيل،فقال كلمته المشهورة: "يا معشر قريش ما تظنون إني فاعلٌ بكم؟!"

قالوا: خيرًا، أخٌ كريم وابن أخٍ كريم..قال: فإني أقول لكم ما قال يوسف لإخوته: (لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ) اذهبوا فأنتم الطُّلقاء".

قصة النفر الذين حضروا لسماع القرآن من الجن

ثم تقدم في طريق مكة حتى بلغ وادى نخلة، وأقام فيه أيامًا. وفي وادى نخلة موضعان يصلحان للإقامة. السَّيْل الكبير والزَّيْمَة. لما بهما من الماء والخصب، ولم نقف على مصدر يعين موضع إقامته صلى الله عليه وسلم فيه.

وخلال إقامته صلى الله عليه وسلم هناك بعث الله إليه نفرًا من الجن {وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنصِتُوا }

يقول ابن عباس رضي الله عنهما: كان ذلك عند ذهابه عليه الصلاة والسلام للطائف ليدعوهم إلى الله وينشر بينهم الدين، ففي بطن نخلة في الطريق إلى عكاظ أخذ يصلي صلاة الغداة –أي: صلاة الصبح– وإذا بنفر من الجن حضروا ليسمعوا القرآن وهو يقرؤه في الصلاة، ومن المعلوم أن الجن كانوا يسترقون السمع في السماوات، فيسمعون الكلمة الحق من الملائكة ينصتون إليها سارقين للسمع فيزيدون عليها تسعاً وتسعين كذبة، فيذهبون إلى كهنتهم ورهبانهم وحاخاماتهم، ويوهمونهم أنهم أتوهم بالحق، يفعلون ذلك كذباً وزوراً وافتراء ونشراً للأكاذيب على عادة الجن في عداء الإنسان، وإذا بهم يوماً حاولوا الذهاب والعلو إلى السماوات وإلى الأجواء ينصتون كعادتهم، وإذا بهم يُضربون بشهب من السماء وبنيازك نارية تقتل من تقتل وتشرّد من تشرّد، وإذا بكبيرهم إبليس يقول لهم: ما هذا إلا لحدث عظيم، اذهبوا واضربوا في مشارق الأرض ومغاربها فانظروا ماذا حدث؟ وإذا بهم وهم في طريقهم إلى أرض تهامة إلى الطائف يسمعون ويرون رسول الله صلى الله عليه وسلم يقرأ ويتلو عند صلاة الصبح، فأنصتوا وتدبّروا وكانوا بين سبعة وتسعة أنفار، فذهبوا إلى كبيرهم وقصوا عليه ما سمعوا فقال لهم: إذاً: هذا الحدث الذي قطع بينكم وبين ما تسمعون، وهذا نبي جديد قد بُعث، والنبي صلى الله عليه وسلم لم يرهم ولم يحضروا بين يديه أولاً، وإنما أوحي له بذلك، قال تعالى: قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِنَ الْجِنِّ [الجن: ١

أسماء السورة وسبب التسمية:

سورة القتال، ويقال لها أيضًا: سورة الذين كفروا، وهي سورة محمد -صلى الله عليه وسلم-، فقد ذكر اسمه صريحًا -عليه الصلاة والسلام- في هذه السورة.

وهذه السورة كما قال الحافظ ابن كثير -رحمه الله-: من السور المدنية.

موضوع السورة:

تتحدث عن المؤمنين والكافرين والمنافقين، وأعمالهم وجزائهم، هذا في مجملها.

مضمون السورة:

١- تضمنت سورة محمد جملةً من القواعد القرآنية منها: {ولو يشاء الله لانتصر منهم}. {إن تنصروا الله ينصركم}. {والذين اهتدوا زادهم هدى...} {أطيعوا الله وأطيعوا الرسول ولا تبطلوا أعمالكم} {وإن تتولوا يستبدل قوما غيركم ثم لا يكونوا أمثالكم}

٢- الجهاد في الإسلام شرع لمقاصد كبرى.

٣- حقيقة حياة الكافر مهما بلغ في التقدم: {يتمتعون ويأكلون كما تأكل الأنعام}، إذ لا قيمة للعقل والذكاء بلا إيمان وزكاء.

٤- خطر المنافقين ، وغفلتهم عن تدبر القرآن، والسبب تلك الأقفال على قلوبهم! (أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴿٢٤﴾) ومهما حاول المنافق إخفاء ما في صدره، فسيظهر على فلتات لسانه،ومواقفه..(وَلَوْ نَشَاء لَأَرَيْنَاكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَاهُمْ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَالَكُمْ)

٥- أن النجاة من مغبة الكفر والنفاق في الدنيا والآخرة،باتباع هذه الآية وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَآمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَى مُحَمَّدٍ وَهُوَ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ﴿٢﴾

٦- ذكرت أنهار الجنّة الأربعة بما تحويها من أصناف، حيث إنّ هناك أنهاراً من العسل المصفّى، وأنهاراً من اللبن، والخمر، والماء النقي، مع تواجد مختلف أصناف الفاكهة، ثمّ قابلت السورة ذلك بذكر شدة العذاب الذي يتلقّاه الكافرون.

(مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِّن مَّاء غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ كَمَنْ هُوَ خَالِدٌ فِي النَّارِ وَسُقُوا مَاء حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ)

وصف أنهار الجنه

(**مَثَلُ الْجَنَّةِ**) أي : صفة الجنة .

(**الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ**) أي : الذين اتقوا الله بفعل أوامره واجتناب نواهيه .

- التقوى مأخوذة من الوقاية ، وهي : أن يجعل الإنسان لنفسه وقاية من عذاب الله بفعل أوامره واجتناب نواهيه .

وقال طلق بن حبيب : التقوى أن تعمل بطاعة الله على نور من الله ، ترجو ثواب الله ، وأن تترك معصية الله على نور من الله ، تخاف عقاب الله .

قال ابن القيم : وهذا من أحسن ما قيل في حد التقوى .

- في هذه الآية دليل على أن من اتقى الله دخل الجنة ، وقد جاء ذلك في آيات كثيرة :فقال تعالى (وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ) وقال تعالى (وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ) وقال تعالى (وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ

مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ) وقال تعالى (إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ) .وقال تعالى (إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَعِيمٍ) .

أنهار الجنة

تعدُّ أنهار الجنة جزءًا لا يتجزَّأُ منها، وقد وصفها الله سبحانه وتعالى بأوصافٍ رائعةٍ وجميلة تُرغِّب الناس في التقرُّب إلى الله ودخول الجنة للتمتع بأنهارها

- كل نعيمٍ في الدنيا ففي الجنة ما هو أكمل منه ولا تشابه بين النعيمين إلا في الاسم أحياناً فقط، وأما الحقيقة فبينهما أعظم مما بين السماء والأرض من الفرق، قال ابن عباس رضي الله عنهما:" ليس في الجنة شيء يشبه ما في الدنيا إلا الأسماء ".(أَعْدَدْتُ لِعِبَادِي الصَّالِحِينَ مَا لَا عَيْنٌ رَأَتْ، وَلَا أُذُنٌ سَمِعَتْ، وَلَا خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ).

فَلا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ السجدة:١٧.

- لقد تكرَّر في القرآن الكريم في عدَّة مواضع ذكرُ أنهار الجنة، لكن في كل موضع تدل على معنى:

الموضع الأول: ﴿ **وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ** ﴾ [البقرة: ٢٥]، فيه دلالة على أن وجود الأنهار حقيقة.

الموضع الثاني: ﴿ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ﴾ [التوبة: ١٠٠]، وهذا الموضع دلالة على أنها أنهارٌ جارية لا واقفة.

الموضع الثالث: ﴿ وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ ﴾ [الأعراف: ٤٣]، وفي هذا الموضع دلالة على أنها تجري تحت غرفهم وقصورهم.

- **أنهارها في غيرِ أخدودٍ جَرَت سبحانَ مُمْسِكها عن الفيضانِ**

من تحتِهم تجري كما شاؤوا مفجْرةً وما للنهرِ من نقصانِ

عسلٌ مصفًّى ثم ماءٌ ثم خَمْرٌ ثم أنهارٌ من الألبانِ

واللهِ ما تلك الموادُ كهذهِ لكن هما في اللفظِ مجتمعانِ

قال ابن القيم : فذكر سبحانه هذه الأجناس الأربعة ونفى عن كل واحد منها الآفة التي تعرض له في الدنيا .

فآفة الماء أن يأسن ويأجن من طول مكثه ، وآفة اللبن أن يتغير طعمه إلى الحموضة وأن يصير قارصاً ، وآفة الخمر كراهة مذاقها المنافي للذة شربها ، وآفة العسل عدم تصفيته ، وهذا من آيات الرب سبحانه وتعالى أن تجري أنهار من أجناس لم تجر العادة في الدنيا بإجرائها ويجريها في غير أخدود وينفي عنها الآفات التي تمنع كمال اللذة بها كما ينفي عن خمر الجنة جميع آفات خمر الدنيا من الصداع والغول واللغو.

- وهذه الأنهار الأربعة جاء ذكرها في حديث معاوية بن حيدة –رضي الله عنه– عن النبي –صلى الله عليه وسلم– قال: "إن في الجنة بحر الماء وبحر العسل وبحر اللبن وبحر الخمر، ثم تشقق الأنهار بعد". رواه الترمذي وقال: حسن صحيح.
- **اجتماع هذه الأنهار الأربعة التي هي أفضل أشربة الناس؛** فنهر الماء لشربهم وطهورهم، ونهر اللبن لقوتهم وغذائهم، ونهر الخمر للذتهم وسرورهم، ونهر العسل لشفائهم ومنفعتهم.
- **وثبت في الصحيح أن أنهار الجنة تتفجر من أعلاها من الفردوس الأعلى من الجنة وتنحدر إلى باقي درجاتها؛** كما قال النبي –صلى الله عليه وسلم–: "إن في الجنة مائة درجة أعدها الله للمجاهدين في سبيله، كل درجتين ما بينهما كما بين السماء والأرض، فإذا سألتم الله فسلوه الفردوس؛ فإنه أوسط الجنة، وأعلى الجنة، وفوقه عرش الرحمن، ومنه تفجر أنهار الجنة". رواه البخاري.

- **والكوثر نهر النبي –صلى الله عليه وسلم– أنعم الله تعالى به عليه:** (إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ) [الكوثر:١]، ويصب في حوضه –صلى الله عليه وسلم– يوم القيامة، فيسقي منه النبي –صلى الله عليه وسلم– من لم يبدل ولم يغير من أمته، وقد رآه النبي –صلى الله عليه وسلم– ليلة المعراج في الجنة فوصفه قائلاً: "بينما أنا أسير في الجنة إذا أنا بنهر حافتاه قباب الدر المجوف، قلت: ما هذا يا جبريل؟! قال: هذا الكوثر الذي أعطاك ربك، فإذا طينه أو طيبه مسك أذفر". وفي رواية: "شاطئاه عليه در مجوف آنيته كعدد النجوم". وفي رواية: "عليه قصر من لؤلؤ وزبرجد، فضرب يده فإذا هو مسك أذفر، قال: ما هذا يا جبريل؟! قال: هذا الكوثر الذي خبأ لك ربك". رواه البخاري.

وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ، كقوله –عز وجل–: يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَاكِهَةٍ آمِنِينَ الدخان:٥٥.

(**وَمَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ**) أي : مع ذلك كله ، مغفرة لذنوبهم ، ليزول عنهم المرهوب ، والمغفرة : ستر الذنب والتجاوز عنه ، وتنكير مغفرة للتعظيم ، أي : ولهم مغفرة عظيمة كائنة من ربهم .

(**كَمَنْ هُوَ خَالِدٌ فِي النَّارِ**) أي : أهؤلاء الذين ذكرنا منزلتهم من الجنة كمن هو خالد في النار ؟ ليس هؤلاء كهؤلاء ، أي : من هو في الدرجات كمن هو في الدركات .

كما قال تعالى (لا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمُ الْفَائِزُونَ)

وقال تعالى (أَفَمَنْ كَانَ مُؤْمِناً كَمَنْ كَانَ فَاسِقاً لا يَسْتَوُونَ) .

وقال تعالى (أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ) .

(**وَسُقُوا مَاءً حَمِيماً**) أي : وسقوا مكان تلك الأشربة ماء حاراً شديد الغليان .

(**فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ**) أي : فقطع أحشاءهم من فرط حرارته ، كما قال تعالى (وَإِنْ يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقاً) .

سبب التسمية:

سميت بذلك لأنها افتتحت ببشرى الفتح للمؤمنين ، وتكرر فيها لفظ (فتحاً) في قوله تعالى (إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحاً مُبِيناً) وقوله تعالى (فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحاً قَرِيباً) .

وقت نزولها :

سورة الفتح مدنية ، نزلت في السنة السادسة عقب صلح الحديبية .

ونزلت السورة بين مكة والمدينة ونزلت ليلاً، ونزلت السورة جملة واحدة.

موضوع السورة:

الهدف الرئيسي في السورة هو الفتح العظيم الذي كان تمهيدًا للفتوحات التي جاءت بعده ، وموضوعات السورة كلها تدور في هذا السياق وهي:

١- امتنان الله تعالى على نبيه – صلى الله عليه وسلم – بالفتح وإبراز مكانته وفضله صلى الله عليه وسلم

٢- فوائد صلح الحديبية للمؤمنين وآثاره على المشركين والمنافقين

٣- بيان مهمة الرسول – صلى الله عليه وسلم – وما يجب على المؤمنين تجاهه والحديث عن البيعة

٤- أحوال المتخلفين عن الحديبية

٥- ثناء الله تعالى على أهل بيعة الرضوان

٦- بعض صفات الكفار والحكمة من صلح الحديبية

٧- تحقيق رؤيا النبي – صلى الله عليه وسلم – وذكر صفاته – صلى الله عليه وسلم – وأصحابه .

(إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا (١) لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا (٢) وَيَنْصُرَكَ اللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا)

إنا فتحنا لك- يا محمد- فتحا مبينا، يظهر الله فيه دينك، وينصرك على عدوك، وهو هدنة " الحديبية " التي أمن الناس بسببها بعضهم بعضا، فاتسعت دائرة الدعوة لدين الله، وتمكن من يريد الوقوف على حقيقة الإسلام من معرفته، فدخل الناس تلك المدة في دين الله أفواجا ولذلك سماه الله فتحا مبينا أي ظاهرا جليا.

فقد أصبح عشرة آلاف بعد سنتين من الحديبية، من ألف وأربعمائة إلى عشرة آلاف في فتح مكه، فهذا فتح مبين.

روي عن ابن مسعود -رضي الله عنه-، وغيره أنه قال: "إنكم تعدون الفتح فتح مكة، ونحن نعد الفتح صلح الحديبية".

والحديبية موضع معروف إلى الآن، فإذا أتيت على طريق جدة إلى مكة وصلت إلى الموضع المعروف بالشميسي، وهي إلى ناحية اليسار هناك.

سبب نزول سورة الفتح:

نزلت هذه السورة الكريمة لما رجع رسول الله – صلى الله عليه وسلم – من الحديبية في ذي القعدة من سنة ست من الهجرة ، حين صدّه المشركون عن الوصول إلى المسجد الحرام ليقضي عمرته فيه ، وحالوا بينه وبين ذلك ، ثم مالوا إلى المصالحة والمهادنة ، وأن يرجع عامه هذا ثم يأتي من قابل ، فأجابهم إلى ذلك على تكرّه من جماعة من الصحابة ، منهم عمر بن الخطاب رضي الله عنه .

صلح الحديبية:

في العام السادس للهجرة أراد الرسولُ – صلى الله عليه وسلم – العمرة مع أصحابه، وذلك عندما رأى رؤيا أنه سيدخل مكةَ، ويطوف حول البيت، ويعتمر، فقص الرؤيا على أصحابه فاستبشروا خيرًا، وقد اشتد بهم الحنين إلى تأدية النسك والطواف بالكعبة ودخول مكة، موطنهم الأول ومسقط رأسهم.

خرج النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ ومعه زوجه أم سلمة في ألف وأربعمائة مسلم، متجهين إلى مكة لقضاء أول عمرة لهم بعد الهجرة، وحملوا معهم السلاح توقعا لشر قريش، فلما وصل إلى ذي الحليفة

أهل مُحْرما هو ومن معه، وبعث النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ بُسر بن سفيان إلى مكة ليأتيه بأخبار قريش وردود أفعالهم. وحين وصل المسلمون إلى عسفان(مكان بين مكة والمدينة)، جاءهم بسر بأخبار استعدادات قريش لصد ومنع المسلمين من دخول مكة..

فاستشار النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ أصحابه ، فأشار أبو بكر ـ رضي الله عنه ـ بالتوجه إلى مكة لأداء العمرة والطواف بالبيت، وقال: (فمن صدنا عنه قاتلناه، فقال ـ صلى الله عليه وسلم ـ : امضوا على اسم الله) (البخاري).

وصلى الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ بأصحابه في عسفان ، ثم سلك بهم طريقا وعرة، متجنبا الاصطدام بخالد بن الوليد ـ وكان لا زال على الشرك ـ حيث خرج من مكة بجنود ليمنع النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ من دخولها.. فمضى النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ ومعه أصحابه باتجاه مكة حتى إذا اقتربوا من الحديبية بركت ناقته، فقالوا: خلأت القصواء(امتنعت عن المشي)؟، فقال ـ صلى الله عليه وسلم ـ: (ما خلأت القصواء وما ذلك لها بخلق، ولكن حبسها حابس الفيل) ثم قال ـ صلى الله عليه وسلم : (والذي نفسي بيده، لا يسألونني خطة يعظمون فيها حرمات الله إلا أعطيتهم إياها) (البخاري)..

فلما نزل الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ بالحديبية أرسل عثمان ـ رضي الله عنه ـ إلى قريش وقال له: أخبرهم أنا لم نأت لقتال، وإنما جئنا عماراً، وادعهم إلى الإسلام، وأَمره أن يأتي رجالاً بمكة مؤمنين ونساء مؤمنات، فيبشرهم بالفتح، وأن الله عز وجل مظهر دينه بمكة..

انطلق عثمان فمر على قريش، فقالوا: إلى أين؟، فقال : بعثني رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أدعوكم إلى الله وإلى الإسلام، ويخبركم : أنه لم يأت لقتال ، وإنما جئنا عماراً..

ولكن عثمان احتبسته قريش فتأخر في الرجوع إلى المسلمين ، فخاف الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ عليه، وخاصة بعد أن شاع أنه قد قتل، فدعا إلى البيعة، فتبادروا إليه، وهو تحت الشجرة ، فبايعوه على

أن لا يفروا، وهذه هي بيعة الرضوان التي نزل فيها قول الله تعالى: { لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحاً قَرِيباً } (الفتح:١٨).

وأرسلت قريش عروة بن مسعود للتفاوض مع الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ، ثم أرسلت سهيل بن عمرو لعقد الصلح ، فلما رآه النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ وسلم قال : قد سهل لكم أمركم، أراد القوم الصلح حين بعثوا هذا الرجل. فتكلم سهيل طويلاً ثم اتفقا على قواعد الصلح.

وقد روى الإمام أحمد أن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ بدأ يُمْلي شروط الصلح، و علي بن أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ يكتب، فأملاه النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ : (**بسم الله الرحمن الرحيم،فقال سهيل : أما الرحمن فوالله لا ندري ما هو ولكن اكتب باسمك اللهم، فأمر رسول الله– صلى الله عليه وسلم – عليًّا فكتبها كذلك، ثم أملى ـ صلى الله عليه وسلم ـ : هذا ما صالح عليه محمد رسول الله، فقال سهيل : لو نعلم أنك رسول الله ما صددناك عن البيت، ولا قاتلناك، ولكن اكتب محمد بن عبد الله، فوافق رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وقال: والله، إني لرسول الله وإن كذبتموني، اكتب محمد بن عبد الله**)

وأسفرت المفاوضات عن اتفاق سُمِّيَ في التاريخ والسيرة صلحا، يقضي بأن تكون هناك **هدنة بين الطرفين لمدة عشر سنوات، وأن يرجع المسلمون إلى المدينة هذا العام فلا يقضوا العمرة إلا العام القادم، وأن يرد محمد صلى الله عليه وسلم ـ من يأتي إليه من قريش مسلما دون علم أهله، وألا ترد قريش من يأتيها مرتدا، وأن من أراد أن يدخل في عهد قريش دخل فيه، ومن أراد أن يدخل في عهد محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ من غير قريش دخل فيه..**

وبينما هم كذلك إذ دخل عليهم أبو جندل بن سهيل بن عمرو في قيوده وألقى بنفسه بين المسلمين، فقال سهيل : هذا يا محمد أول من أقاضيك عليه أن ترده إلي، فأعاده النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ للمشركين، فقال أبو جندل : يا معشر المسلمين أأُرَد إلى المشركين يفتنونني في ديني، فقال له النبي ـ

صلى الله عليه وسلم . :(إنا عقدنا بيننا وبين القوم عهدا، وإنا لا نغدر بهم)، ثم طمأنه النبي . صلى الله عليه وسلم . قائلا:(يا أبا جندل اصبر واحتسب، فإن الله جاعل لك ولمن معك فرجا ومخرجا) (أحمد)..وافق الرسول . صلى الله عليه وسلم . على شروط المعاهدة، التي بدا للبعض أن فيها إجحافا وذلاً للمسلمين، ومنهم عمر . رضي الله عنه . الذي قال للنبي . صلى الله عليه وسلم . : (**ألسنا على الحق وعدونا على الباطل؟، قال . صلى الله عليه وسلم . بلى، فقال: فَلِمَ نعط الدنية في ديننا إذاً ؟**) (البخاري) .لكن الرسول . صلى الله عليه وسلم .كان مدركا وموقنا أن هذا الصلح سيكون فاتحة خير وبركة على المسلمين بعد ذلك. ثم انصرف رسول الله . صلى الله عليه وسلم . قاصدا المدينة..

ولما فرغ رسول الله صلى الله عليه وسلم من قضية الكتاب قال: (قوموا فانحروا)، فوالله ما قام منهم أحد حتى قال ثلاث مرات، فلما لم يقم منهم أحد قام فدخل على أم سلمة، فذكر لها ما لقي من الناس، فقالت: يا رسول الله، أتحب ذلك؟ اخرج، ثم لا تكلم أحداً كلمة حتى تنحر بدنك، وتدعو حالقك فيحلقك، فقام فخرج فلم يكلم أحداً منهم حتى فعل ذلك، نحر بُدْنَه، ودعا حالقه فحلقه، فلما رأي الناس ذلك قاموا فنحروا، وجعل بعضهم يحلق بعضاً، حتى كاد بعضهم يقتل بعضاً غماً.

أنزل الله على نبيه سورة الفتح، في طريق عودته للمدينة المنورة، والمسلمون في هم وغم، وقد حيل بينهم وبين نسكهم، فانقلبت كآبتهم فرحا وسرورا، وأدركوا أن التسليم لأمر الله ورسوله فيه كل الخير لهم ولدعوة الإسلام.ويقول أنس بن مالك رضي الله عنه واصفًا حالهم مع النبي – صلى الله عليه وسلم –:(مرجعه من الحديبية، وهم يخالطهم الحزن والكآبة، وقد نحَر الهدي بالحديبية، فقال: ((لقد أنزلت علي آية هي أحب إلي من الدنيا جميعًا))رواه مسلم.

وفرج الله بهذه السورة غم المسلمين، وأسعد قلوبهم بما حوت من البشارة بالفتح المبين وبالنصر، والثناء والرضا على المؤمنين، حتى قال الرسول – صلى الله عليه وسلم – عنها: ((لقد أنزلت علي الليلة سورة، لهي أحب إلي مما طلعت عليه الشمس))، ثم قرأ: إنا فتحنا لك فتحا مبينا) رواه البخاري

سورة الحجرات ١

مقدمه:

- سورة الحجرات مدنية وعدد آياتها ١٨ آية .
- نزلت في العام التاسع من الهجرة، ويسمى بعام الوفود لكثرة الوفود والعشائر والقبائل التي وفدت على النبي صلى الله عليه وسلم بعد صلح الحديبية.
- سميت بالحجرات لأن الله تعالى ذكر فيها حجرات النبي صلى الله عليه وسلم .

حيث كان لكل واحدة منهن حجرة في مؤخرة المسجد النبوي وهي تسع حجرات وكل حجرة لها باب مفتوح على المسجد مباشرة يخرج منه رسول الله صلى الله عليه وسلم الى المسجد.

- هذه السورة تسمى سورة الأخلاق؛ لأن مجمل آياتها يدور حول موضوع واحد، وهو: ما يتصل بالآداب والأخلاق حيث تشتمل على جملة من الآداب؛ الأدب مع الله، والأدب مع رسول الله، والأدب مع عباد الله المؤمنين.
- تكرر النداء {يا أيها الذين آمنوا} في هذه السورة خمس مرات، قال ابن مسعودٍ رضي الله عنه: «إذا ما سمعتَ الله عزَّ وجلَّ يقول: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ فأرِعْه سمعك فإنَّ ما بعده خيرٌ يأمر به، أوْ شرٌّ ينهى عنه».